**الصِّراع بين المثقّف والسلطة في الخطاب الفلسطينيّ واقعٌ ووهم ـ النّص الرّقمي نموذجا.**

**د. عبدالخالق عيسى/ جامعة النّجاح الوطنيّة/ نابلس/ فلسطين**

**إنَّ القبيلة العربيّة قديمًا كانت مركز الفرد، ومؤسسته التي ينتمي إليها، وهي التي تشكّل خطابه، وتبني عالمه، وتؤثّر في نتاجه الثّقافي، وقد مرّت حياته بمراحل كثيرة، تأرجحت بين جاذبية الفكر السماوي، وخيارات النحل الأرضيّة، والانتماء للعروبة، وغيرها.**

**وبفعل التسارع الكوني في وسائل الرّبط العنكبوتيّة تخلخلت الحواجز، وانهارت، فخرج الفردُ من شرنقةِ الذّات، والقبيلة، والدين، والجنس، ودخل في الكونيّة؛ لأنّ العالم غدا بنية واحدة، تعيش الأزماتِ الفكريّةَ نفسَها، وتبحثُ عن الحلول ذاتِها، حلولِ أزمةِ الذّات مع الذّات، وأزمة الذّات مع الآخر. وقد تولّد عنها أمراضٌ نفسيّة كثيرة؛ من أهم أسبابها: تعقيدات الحياة، وفقدان الثّقة بالآخرين، وشيوع الشّك والحيرة، وعدم القدرة على الاندماج مع الخطاب المعاصر، أو فهمه، وانهيار المنظومة الفكريّة الوطنيّة والدينيّة في الذّهنيّة العامّة.**

**ومن بين الأزمات الإشكالية في الخطاب الفلسطيني، أزمة المثقّف والسلطة، وهي أزمة واقعيّة أحيانا، ومفتعلة ووهميّة أحيانا أُخَرَ، يتسبب في إنتاجها البون الشاسع بين طبيعة الوعي في المنظومة السّياسيّة، ونظيره في وسط المثقفين، فضلًا عن تنامي غوغائيّة العامّة في المجتمع.**

**وقد نتجَ عن ذلك كلّه صعوبةُ في الحوار، أو استحالتُهُ بين المنظومتين، لتكون النتيجةُ المواجهة المعلنة من جهة المثقفين؛ لأنّهم يرون تفوقهم، وأحقيتهم في بناء الفكر والتغيير، ومواجهة في الظلام أيضًا من جهة السلطة؛ لإيمانها في اللاوعي بقوّة المثقف، أو بوجود قوى خارجيّة تتحكّم في خطابه.**

**وإذا استعرضنا الخطاب الفلسطيني المعاصر فسنجده في مسارين:**

**الأول: مسار الفعل الثّقافي الواعي الهادف ، أو المسيّس.**

**والثاني: مسار الفعل السّياسي المستقطِب أحيانًا، والقمعي أحيانًا أخر.**

**والمساران في غالب الأحيان لا يلتقيان إلا إذا كان في الأمر قناعةٌ، أو موالاة ، أو مؤازرة، أو مداهنة. والأمر الذي قد يلتقي حوله المحلّلون هو وضوح الرّؤية عند النّخبة المثقّفة الواعية المنتمية إلى فكرها، وهم قِلّة، والانسياق وراء النّخبة عند المثقّف نصف الواعي، وعامّة النّاس الذين يتّبعون غيرهم دون تمحيص، أو تحليل، أو فهمٍ واعٍ.**

**ونلمس هذا كلّه بوضوح حين نقرأ نصًّا يهاجمُ نظامًا سياسيّا، أو مؤسسة، أو شخصية، أو فكرةً على إحدى الصفحات الإلكترونيّة؛ فهذا يكتب:**

* **كلهم فاسدون.**
* **وآخر: الخزي والعار لهم.**
* **وثالث: باعوها من زمان.**
* **ورابع: كذا وكذا.**

**وقد يأتي أحدهم ويعارض الرأي، فينحرف الحوار، وتنقلب الأمور رأسًا على عقب، فنجد بعض الذين أنتجوا عبارة :"الخزي والعار" ينتجون عبارة جديدة يختلف الوعي فيها، وتختلف الرؤية، ويختلف الخطاب؛ فتعيش الصفحةُ ذاتُها تجاذباتٍ، وهرطقات كثيرة، تُفسد الودّ، وتعلن الحرب، لنصل إلى غوغائيّة، ودعشنة الفكر، جنبًا إلى جنب مع الاتّجاه الآخر الذي يؤمن أنَّ السّعادة التي يَنْشُدُها في المدينة الفاضلة لا تتحقّق إلّا إذا سار النّاس على منهجِ زعيمهم، والزّعيم لا يؤدّي رسالته إلّا إذا وصل بالنّاس إلى هذا المستوى الرّفيع؛ فننتقل من حالة وعيٍ عند المثقّف الذي أنتج نصًّا إلى حالة فوضى، وظلام، وضبابية، واختلاط الفكر، بالسياسة، بالجنس والعرق، والجدّ بالهزل، وغير ذلك دون وعي واضح.**

**فلا نعود نُجمع على فكرة، أو نلتقي على وصفِ حالة، أو حلِّ مشكلة، وأغلب ما نطالعه على المواقع يخلو من المعرفة، والمعرفةُ سلطةٌ فاعلة، إذا غابت تلاشت السلطة، وذهب أثرُها.**

**ولنأخذ المثال الآتي:**

**يقول أحدهم:" أنا لستُ مع المصفقين، ولا مع المطبّلين. ما لم يكن الطّرب أصيلًا لا يطربني."**

**التّعليقات:**

**يكتب أحدهم :" لكن في ناس تطرب على نهيق حمار هذه الأيام، خصوصا إذا كان ينهق بحضور الكاميرات** **والميكرفونات في فندق 5 نجوم."**

**ويردّ عليه آخر:" يا وابور قلي رايح على فين!!؟؟. ....**

**مثال آخر:**

**"لن أعقّبَ على ما تمخضت عنه الوقائع في سوريا ريثما يستعيد بعض الأصدقاء وعيهم، ويقرون بفساد ما كانوا عليه"**

**تعليقات:**

* **تمخض الجمل فولد فأرا.**
* **نعجة ولو طارت.**
* **البادئ أظلم.**
* **الضربة مش لسوريا الضربة لروسيا حتى تلزم حدها.**
* **عتبي على من يرى الباطل ويتبعه.**

**يا فلان ما زلت تردد ما يردده عملاء بريطانيا من أنّ العالم كله بيد أمريكيا والغرب. مصابيح الغرب انطفأت عزيزي...**

**مثال آخر:**

**الكثير من أسئلة امتحان التربية غير دقيقة، وربما بشكل مقصود. أتساءل لماذا الفلسفة الزائدة في صياغة الأسئلة؟**

* **اللي اله واسطة ضامن التوظيف**
* **لنترك المجال لفيتامين وووو. بس هذه القصة.**
* **عشان نرسب**
* **منع التوظيف.**
* **أنا باعتقادي أنّ وزارة التربية والتعليم وضعت أسئلة غاية في الصعوبة؛ حتى تجد لنفسها مبررا لعدم استيعاب الأعداد الهائلة.**
* **من يضع الأسئلة عبقري.**

**والغريب في الأمر أنّ كثيرا من المعلقين لم يطلعوا على الأسئلة لا من قريب ولا من بعيد، وهذا لا يعني أنهم غير مصيبين فقد تكون آراؤهم سديدة إلى حدّ ما.**

**إنَّ الخطاب الرقمي الفلسطيني المعاصر، وهو أكثر أشكال الخطاب شيوعًا وتأثيرًا لا يرتقي إلى مرحلة الوعي بأنَّ الأفكار التي نعرضها أمام المتلقّي ليست كلامًا عشوائيًّا مفرغًا، أو شعارات ينبغي الاستماتة في الدّفاع عنها، أو نظريّات يجب تعميمها وتطبيقها، بقدر ما هي أدوات لفهم الواقع أو تشخيصه، أو وصف الحدث، والاجتهاد في تقديم رؤية حوله، وهي" حيلنا في التعقّل والتّدبّر للحياة والوجود"**

**وإنّ صياغة المواقف بعقلانيّة الواعي الذي لا ينظر إلى أفكاره على أنّها نهائيّة، ويراها تخضع للنسخ، أو التعديل، أو التحويل أمرٌ نادرٌ في الخطاب الفلسطيني المعاصر، وكذلك العربيّ؛ لأنّ ذلك يأتي حين يكون الفرد قادرا على الاستنارة بأفكار غيره، والاستنارة" فسحة لممارسة حيويّة التّفكير، ينبغي خلقها، وتوسيعها على نحو متواصل." وأقول على نحو متواصل؛ لأنّ تفكيرنا يتلوّث يوميًّا، ويحتاج إلى هذه الفسحة.**

**وخلق الاستنارة أمر مرتبط بالتنشئة على قَبول الآخر، واحترام رأيه، ورفضِ مبدأ الإقصاء، وهذا يكاد يكون مغيّبًا في ثقافتنا . وفي المقابل يكثر من يصنّف نفسه مصلحًا اجتماعيًّا، وسياسيا، وقدوةً في الدين، ويحاول في خطابه طرد الآخرين، واستسخاف آرائهم، أو تكفيرهم، أو تخوينهم، ولا يضيره أن يكون مخرّفًا، أو سوداويًّا، أو ظلاميًّا، ومستبدًّا.**

**والصنف الآخر من المثقفين يحيلون أفكارهم إلى علاج مجرّب، وينبغي على الناس تناوله في الأوقات التي يحددونها، ولا يقيمون مع ذواتهم وأفكارهم علاقة نقديّة، على نحو يتيح لهم التحوّل إلى غيرها، أو استبالها. وهذا يتناقض مع الفهم التّنويري الذي يصل بالمثقّف إلى معرفة واضحة بديناميكيّة الحياة وتسارعها، فالمجتمع بكليته يتغيّر، ويُعاد إنتاجه، عبر تفكيك أنماط رؤيته، وطرق تفكيره، وأساليب تقييمه.**

**فلو تأمّلنا واقعنا المعاصر اليوم، وأجرينا مقاربة بينه وبين الواقع قبل ستين سنة، فإنّنا سنصاب بدهشة عظيمة؛ لأنّ أدوات المجتمع تغيّرت، وأنماط تفكيره انقلبت، وثقافته تلوّنت وتبدّلت. فالثّقافة نص مرتحِل، وليست مسمارًا مثبّتا هنا أو هناك.**

**ومن هنا لا بدّ من الاعتراف أنّ لكلّ مثقّف نهاية، ونهايته تعني إعادةَ تشكيل ذاته، وإعادة صياغة المفاهيم المتعلّقة بالتغيير الاجتماعي، والعمل السّياسي، أو الإنمائي، والتّحرّر من أوهام النَّخبويّة، بعد الفشل في قيادة المجتمع، وإحداث حالة وعي واضحة، وأخصّ في هذا الجانب النخبويّة الحزبيّة التي فقدت إيمانها بفكرها، وما زالت تنظّر له، وتستميت في الدّفاع عنه.**

**فالنخبويّة في زماننا لم تعد قادرة على التّأثير في أيّ جانب من جوانب الحياة؛ ومنها نخبويّة الوسط الديني التي أصبحت في زماننا مقصدًا للتّندّر، وعنوانًا للتّخلّف والتشدّد، فما عدنا نرى أمثال العز بن عبدالسلام الذي أجبر المماليك على بيع أنفسهم قبل أن يكتسبوا الشّرعيّة، بعد أن خرج وتبعته عامّة النّاس، وما عدنا نرى أمثال ابن تيمية. لقد تلاشت نخبويّة العالم الذي يحمل أمانة المرجعية الدينيّة.**

**وتلاشت مرجعيّة الأديب القائد، والعالِم المثال، وإن وُجدت فقد آلت إلى العزلة، والهامشيّة.**

**وعليه" فإنّ إشكاليّة السّلطة والمثقّف هي إشكاليّة زائفة، وإنّ الأزمة في النّهاية هي أزمة مفاهيم، وإن كثيرا من دعاة الإصلاح يعملون على أن يكون المجتمع قادرًا على إخضاع الدّولة لأهدافهم ومصالحهم، ولا تستطيع عامة النّاس إدراك ذلك بسهولة، فتبقى في ركبه، إلى أن يشاء الله، وقد يكون في هذا هلاكٌ للقيمِ والمقدّرات.**